﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾ [الأنبياء:36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

موقف الكفّار من إيذاء النَّبيِّ ﷺ

لَمّا تحدَّثت الآيات السّابقة عن معبودات قريش التي عبدتها وهوَّنت من شأنها وأبانت عن عَجْزها وضعفها، وكان ذلك ممّا يغُمُّ المشركين؛ بيَّنت هذه الآية ردَّ فعلهم على التَّهوين من شأن معبوداتهم؛ فشرعوا في الاستهزاء بالرَّسول ﷺ والتَّنقيص من قدره، وذلك عند رؤيتهم له ﷺ بقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾.

ومِنَ المناسبات بينَهما: أنَّ اللَّهَ ﷻ لمّا أخبرَ عَن مَطاعنِ المُشْرِكينَ في القُرآنِ الكريمِ ومَن جاءَ به ﷺ؛ ذَكَر وصْفًا آخَرَ لِما يُؤْذي به هؤلاءِ المُشْركون رسولَ الله ﷺ حينَ رُؤيتهم لَه؛ إذْ ذلك أخصُّ مِن أذاهُم إيّاه في غَيْبته، فقالَ سُبحانه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾: (أخذ) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنى حيازَةِ الشَّيءِ وجَمعِه[2]، وهذا المَعْنى يكونُ تارةً بالتَّناوُلِ، وتارةً بالقَهْرِ والغلَبَةِ[3].

ومِنْ هذا البابِ وُرُودُ المادَّةِ مرادًا بها التَّحصيلُ، كقولِهم: اتَّخذَ فلانٌ مالًا، أي: كسَبَهُ، وفِعْلُ (اتَّخذَ) هُو افتعالٌ مِنَ الأخذِ، والمرادُ به: الأخذ للنَّفْسِ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 75.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(3) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (أخذ).
(4) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أخذ).

والاتِّخاذُ الواردُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يُرادُ به الجَعْلُ والتَّصْييرُ، أي: يجعلونَهُ ويُصيِّرونَهُ محلَّ الهُزءِ، وهو جعلٌ وتصييرٌ في أذهانِهم لا في الواقِعِ ونَفْسِ الأمرِ.

2) ﴿هُزُوًا﴾: (هزأ) تدلُّ تَصريفاتُها على معنى السُّخرية[1]، والهُزْءُ: مزحٌ في خفية، وقد يقال لِما هو كالمزح؛ فممّا قُصِد به المزح قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: 58]، والاستهزاء: ارتياد الهزء، وإن كان قد يُعَبَّر به عن تعاطي الهُزْءِ، ويأتي الهُزْءُ بمعنى الاسْتِخْفافِ[2]، وكأنَّ هذا تفسيرٌ باللّازِمِ؛ فإنَّ الذي يُسْتَهْزَأُ به؛ يُستهانُ بشأنِه، ويُستخفُّ به[3]، وهذا هُو المَعْنى الواردُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

وحكى ابنُ جرير أنَّ الاستهزاءَ في كلام العرب معناه: إظهارُ المُسْتَهْزِئ لِلمُسْتَهْزَأ به مِنَ الفِعْلِ والقولِ ما يُرضيه في الظّاهِرِ، ولكنَّ ذلكَ يُورثُهُ مَساءَةً في الباطِنِ[4].

3) ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾: (أله) تدور اشتقاقاتُها على مَعْنى التَّعبُّدِ، ومِنْهُ: الإلهُ وهو المعبودُ، ويُقال: تألَّهَ الرَّجُلُ؛ إذا تَعَبَّدَ[5]، ويقال: أَلِه فلانٌ يأله إلاهةً، أي: عبد يعبُد عبادةً، واللّه: هو المعبودُ بحقٍّ.

وجَمعُ إِلَهٍ: آلِهَةٌ، وليس لفظُ الإله متعيِّنًا في المعبودِ الحقِّ، وإنَّما ذلك المَعْنى حاصل في اسم (اللّه)؛ فإنَّ معناه الإلهُ الحقّ، ولذا ما يُقال من أنَّ لفظ (إله) حقُّه ألّا يُجمَعَ غير صحيح، والمراد بالآلهة: المَعْبوداتُ بالباطلِ، وهُو المُراد في قولِه تَعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾[6].

4) ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: (رحم) تدلُّ اشتقاقاتُها عَلى الرِّقَّة والعطفِ والرَّأفة[7]، ومِنْهُ: المَرْحَمَةُ؛ وهي الرَّحْمَةُ، كما قال تَعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد:17]؛ أي: أوصى بعضُهم بعضًا بِرَحْمَةِ الضَّعيف والتَّعطُّفِ عليه[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هزأ).
(2) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ: (هزأ).
(3) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزأ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 303.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أله).
(6) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (أله).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(8) الخليل، العين: (رحم).

والرَّحْمَةُ من صفاتِ اللّه تَعالى صِفَةٌ تَقْتَضي الإحسانَ والإنعامَ[1]، وليست هيَ الإحسانَ ذاتَهُ، ولا إرادَتَهُ.

والرَّحْمنُ: اسْمٌ للّه تَعالى مُتَضَمِّنٌ وصفَ الرَّحمة للّه سُبحانه باعْتبار كمالِ اتِّصافه بِها[2]، ولا يُطْلَقُ الرَّحمن إلّا على اللّه تعالى من حيث إنَّ معناه لا يَصِحُّ إلّا له[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جُحودُ الكُفّارِ بِالرَّحْمنِ ﷻ

بيَّنت هذه الآيةُ بَعْضًا من سفاهات كفّار مكَّة تجاه النَّبيِّ ﷺ حين مُرورِه عليهم، فيسخرون منه، وصَوَّر القرآن هذا المشهد بقوله: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الآيةَ، أي: إذا رآكَ الكُفّارُ - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - ؛ أشاروا إليكَ ساخِرينَ مِنك بِقَوْلِ بعضِهم لبعضٍ: أهَذا الرَّجلُ الذي يَذْكُر آلِهتكم بِسوءٍ ويَعيبُها؟ لكنَّهم جَحدوا بِالرَّحْمن ونِعَمِه، وبِما أنزلَهُ مِن القرآنِ والهُدى[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الجُملَةِ بِما قَبْلَها:

تـواصُـل إيـذاء الـكُـفّارِ لِلنَّبيِّ ﷺ

وُصِلَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ بما قبلَهُ من الآيات؛ للاشْتراك في ذِكْرِ مطاعِن المُشْركين في القرآنِ الكريم وفي النَّبيِّ ﷺ، وذلك لأنَّ اللّه سُبحانه قالَ عَنْهُم: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء:3]، فعَطَف عليه قولَه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[5]؛ لبيانِ وصفٍ آخرَ كانوا يُؤذونَ به النَّبيَّ ﷺ حينَ يَرونَهُ[6].

---

(1) ابن عثيمين، مذكرة على العقيدة الواسطيَّة، ص: 23.
(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 42.
(3) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (رحم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 440، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسر، ص: 325.
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 419.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 75.

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ (إذا):

مُخالَطَةُ النَّبيِّ ﷺ قَـوْمَـهُ لِدَعْوَتِهِم

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ بـ (إذا) دون (إن)؛ لأنَّها دالَّةٌ في الأصلِ عَلى القَطْعِ بِوقوعِ مَدْخولِها وتَحَقُّقِه، وفي هذا دلالة على أنَّ رُؤْيَتَهُم للنَّبيِّ ﷺ متحقّقةٌ - لكونِه غيرَ معتزلٍ قومَهُ - واسْتِهْزاءَهم به متحقَّقٌ مقطوعٌ به كلَّما رَأوْهُ، وهذا مِنْهُم في غايَةِ الضَّلال والانحرافِ.

وفي التَّعبير بـ ﴿وَإِذَا﴾ أيضًا: إشارة إلى مدى العناء الذي تحَمَّله رسولُ اللهِ ﷺ من إيذاء قومِه في عَرْضه الدَّعوةَ عليهم صباحَ مساءَ، وهم يُقابلون ذلك بالسُّخرية منه والاستهزاء به عليه الصَّلاة والسَّلام كلَّما رأوهُ.

سِرُّ التَّعبير بالرُّؤية في قوله: ﴿رَءَاكَ﴾:

وُضـوح المـرئيِّ وظهورُه

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبير بالرؤية في قولِه: ﴿رَءَاكَ﴾ دون غيرها مِن النَّظر والبَصر لوجودِ فرق بينَها، فأصلُ مادَّة (رأى) يدلُّ على العلم بالشَّيء إمّا بالعينِ أو بالقلبِ، بخلاف مادَّة (بصر)؛ فإنَّها تدلُّ على وضوح الشَّيء، تقول: أبصرتُه؛ إذا رأيتَهُ، أمّا (نظر) فإنَّها تدلُّ على تأمُّلٍ للشَّيءِ ومعاينةٍ له؛ هذا من جِهَةِ اللُّغة[1].

أمّا في الاستعمالِ القُرآنيِّ؛ فلِكُلِّ لفظ ما يُميِّزه؛ فمادَّة البصر في القرآن يدور معناها حولَ الإدراك بحاسَّة البصرِ، وهيَ العينُ والإدراكُ بالبَصيرَةِ، وشواهدُ القرآنِ على ذلك كثيرة، فمِمّا وردَ في استعمالاتِ البَصَر بِمَعْنى الجارحةِ قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل:78]، ومن استعمالاته بمعنى البصيرة قولهُ سُبحانَهُ: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس:43].

وأمّا النَّظر؛ فأصلُ معناه التَّحديق بحاسَّة الإبصار نحوَ الشَّيء،

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 133.

وهذا في نفسِه لا يُؤدّي إلى إدراك الشَّيءِ؛ لأنَّ النَّظر تحديقٌ والإبصارَ إدراكٌ، والنَّظر أدنى مراتب الإدراك بالعينِ، ويُطْلق النَّظر على التَّأمُّل والاعتبار كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:101].

وأمّا الرُّؤية فتُسْتَعمل للإدراك بحاسَّة البصر على الحقيقةِ، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام:76]، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ﴾ [الأنعام:77] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، وتُطْلق على الإدراك بالفكر والعقل، نحو قولِه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم:11].

ولمّا كان للتَّعبير بالرّؤية دلالةٌ في تحقُّق المرئيِّ، عبّر بها هنا؛ لأنَّ المرادَ رسولُ الله ﷺ، ولم ينسب للكفّار التَّعبير بالبصر؛ لأنَّ مِن معانيه الإدراكَ بالبَصيرَةِ، وكفّار مكَّة سُلِبت منهم البصيرة، ولم يُعَبّر بالنَّظر عن الكُفّار؛ لفقدهم التَّأمُّلَ والاعتبارَ، إذْ لو وُجِد عندَهُم التَّأمّل والبصيرة القلبيَّة ما سَخِروا مِن رسولِ الله ﷺ.

وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالرُّؤية: تصويرُ سخريَّة المشركين واستهزائِهم - قاتلهم الله - بشخصِ النَّبيِّ ﷺ، فكأنَّ مجرَّد الرُّؤية منهم للرَّسول ﷺ تُثير سخريَّتهم حرصًا مِنْهُم على هَدْفِهم الخبيثِ في إضعافِ مكانَتِه ﷺ عند مَن يَتَطَلَّعون إلى الإيمانِ بِهِ.

دِلالة التَّعبير بالماضي ﴿رَءَاكَ﴾:

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبير بالماضي في قوله: ﴿رَءَاكَ﴾ دون المضارع؛ للدّلالة على تحقُّق رؤيتهم للرَّسول ﷺ، وأنَّه لم يَسْتَخْفِ عن أعينِهم، وفي هذا دليل على عظمةِ رسول الله ﷺ وشجاعته في إبْلاغ الدَّعوة، وتسفيه أصنامهم.

تحقُّق رؤيةِ الكُفّار للرّسول ﷺ وعدم استخفائه عَنْهُم

دِلالة تقديم المفعول في ﴿رَءَاكَ﴾:

قُدِّم المفعول على الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾؛ للدّلالة على العناية بشخصه ﷺ، وأنَّه محلٌّ للرّؤية من هؤلاء القوم؛ فهو

المخصوص برؤيتهم دون غيره مِمّن يمُرُّ على الذين كفروا، وفي هذا دليل على ملاحقة أعيُنِ الكفّار للرّسولِ ﷺ دون غيره مِنَ الأشخاص؛ لأنَّه راية الإسلام، فإذا قُضي عليه - من وجهة نظر الكفّار - بتشويه شخصيَّته وتجريدها من جلال النُّبوَّة وهيبة الرِّسالة؛ فقد قُضيَ على الإسلام.

إظـهـار عظمة الـرَّسـول ﷺ وشـجـاعـتـه في إبلاغ الدَّعوة

بَراعَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضمارِ؛ على تقدير: (وإذا رأوكَ إن يتَّخذونك إلّا هزُوًا)، لكن أُظْهِرَ لأجلِ التَّنبيه على أنَّ ظُلْمَهم الذي أوجَب لهم ذلك هُو الكفرُ وإن كانَ في أقَلِّ درجةٍ، والمرادُ مِن ذلكَ تَشْنيعُه والإيماءُ إلى أنَّه يَطْمِسُ الفكرَ مُطْلقًا[1].

ليس بعدَ الكفر ذنبٌ

ومِن أسرار التَّعبير بالإظهار في موضع الإضمار: تعيينُ الكفّار المعاصرين لرسول اللّه ﷺ وتحديدُهم، وهم الذين وقعت منهم هذه السُّخريّة، ولو جاء التَّعبير بالإضمارِ - على مقتضى الظّاهِرِ - لَتُوُهِّم أنَّ الأمر ينصرف إلى مُطْلق الذين كفروا، وهذا غير مرادٍ بدليل السّياق الذي ورد فيه مشهد السُّخريّة من كفّار مكَّة.

إيثارُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ:

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بالاسْم المَوْصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ - بدلًا مِنَ الاسْمِ الظّاهِر (الكافرون) مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ - لإرادَةِ التَّعليلِ والإيماء إلى علَّة بناءِ حُكم الاستهزاءِ المذكور بعدُ، وأنَّ الباعثَ عليه هُو الكُفْرُ.

الكُفْرُ هُوَ الباعِثُ عَلى الاسْتِهْزاءِ

وفيه إشارة إلى اشتهارهم بما وقَعَ في حيِّز الصِّلة وهو الكُفْرُ، وشمولِ كُلٍّ من تلبَّس بالكفر.

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 419.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

تَمَكُّن الكفرِ في قُلوبِهم

دل التَّعبير بالفِعْلِ الماضي ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ مِنْ قولِ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ على أنَّ الكفر رسَخ في قُلوبهم وتمكَّن منهم؛ فأفسد فطرتَهُم حتّى فقدوا الاستعدادَ للإيمان، وأيضًا فيه تبشيعٌ للكفر بكُلِّ صُوَرِه، ولو كان بِكفران النِّعمة.

دلالةُ حذفِ متعلِّق الفعلِ ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

بَيانُ كُفْرِهم بِكُلِّ ما يجِبُ الإيمانُ به

لم يَرد في السّياق القرآنيّ ما الذي كفر به هؤلاء مَع وضوحه وظهورِه؛ لأنَّ الغرض إفادةُ العموم في جحود الكافرين؛ فلم يَقْتَصِر كفرُهم على رسولِ الله ﷺ ولا على المعجزة التي نَزَلَت عليه - وهي القرآنُ - بل كفروا بكلِّ ما يَنْبغي أن يُؤْمِنوا به.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دون (الذين أشركوا):

الـشِّـرك أخـصُّ مِنَ الكُفْرِ

عبَّر القرآن الكريم بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دون (الذين أشركوا)؛ لأنَّ الكفر أعَمُّ من الشِّرك؛ إذِ الكفرُ يقَعُ على ذنوبٍ كثيرةٍ، منها: الشِّرك بالله؛ فالشِّرك يتعلق بالله تَعالى مِن جهةِ التَّوحيد والعمل والطّاعة، بينما الكفر يتعلَّق بالجحودِ والإنكار في نواحي الإيمان والنِّعم الإلهيَّة، فبينَهُما عموم وخصوصٌ؛ فكل مشركٍ كافرٌ، وليس كلُّ كافرٍ مشركًا[1].

لذلك آثَر القرآنُ الكريم التَّعبير بالكفر في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ كفّار مكَّة جمعوا بين الكفر والشِّرك، وهذا مُنْتهى القبح، فلا غرابة مِن وقوع الاستهزاءِ مِنْهُم بالرَّسول ﷺ.

دلالة ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾:

النَّـفـي بـ (إنْ) أقوى من النَّفي بـ (ما)

آثر القرآن الكريم التعبير بـ﴿إِن﴾ في قولِ الله ﷻ: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ لأنَّها بِمَعْنى (ما) النّافية[2]، والنَّفي بـ ﴿إِن﴾ أقوى من النَّفي بـ (ما)، والمَعنى: ما يَتَّخذونك إلّا محلًّا للسُّخريَّة والاستهزاءِ.

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 258.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 82.

دِلالَةُ أُسْلوبِ القَصْرِ:

في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أسلوبُ قصرٍ، وطريقُهُ النَّفْيُ بـ﴿إن﴾ والاستثناءُ بـ﴿إِلَّا﴾، والمَعْنى: ما يتَّخذونَك إلّا مهزوءًا بهِ، ففيه قصرُ معاملةِ المُشْركين للرَّسول ﷺ على اتِّخاذِهم إيّاه هُزُوًا، كأنَّه قيلَ: ما يفعلونَ بكَ إلّا اتِّخاذك هُزُوًا[1].

اسْتِغْراقُ الاسْتِهْزاءِ جَميعَ أحوالِ المُشْركينَ

دلالة النَّفي والاستثناءِ على القَصر:

في إيثارِ النَّفْي والاسْتِثناءِ في إفادَةِ القَصْر دِلالة على المبالغةِ؛ لكونِ ذلك يُفيد استغراقَ الاستهزاءِ في جميعِ أحْوالِهم، أي: لَم يُعامِلوه بمعاملةٍ أُخرى غير الاستهزاءِ، فقَصروا معاملتَهُم لَه عليه؛ فلَيْسَ لَدَيْهِم في أنْفُسِهم فراغٌ لِسَماع الحقِّ والإنصاتِ إلَيْهِ، وإذا رأوا النَّبيَّ ﷺ رَؤوفًا بِهِم رحيمًا مُتواضِعًا؛ أغْرَتْهُم هذه الرُّؤية بأن جَعَلوا هذه الصِّفاتِ الجليلةَ لِرَسولِ اللّه ﷺ محلًّا للاسْتِهْزاءِ[2]!

لَيسَ في طَبْعِ الكُفّارِ غيرِ الاستهزاءِ

دلالة التَّعبير بالمُضارع: ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾:

دل التَّعبير بالفعلِ المضارع ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾ على تجدُّد الاستهزاءِ والسُّخريَّة منهم بالرَّسول ﷺ، وقد سجَّل القرآنُ الكريمُ كثيرًا مِن سُخْريَّتهم به ﷺ بأنَّه شاعر أو ساحر أو كاهن، إلى غيرِ ذلك مِن صُوَرِ الاستهزاءِ التي لا تَخْفى على مَن يقرأ السّيرة النَّبويَّة وما فيها مِن أحداثٍ ووقائِعَ في هذا الشَّأن.

تَجَدُّد سُخريَّةِ الكُفّارِ واستمرارُها

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ ﴿هُزُوًا﴾:

والهُزْوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ مصدَرٌ وُصِفَ به أو هو مصدرٌ بمعنى اسْمِ المفعولِ، أي: إن

الاسْتِهزاءُ طَبْعٌ لِأَهْلِ الإشْراكِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 66، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 45.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4862.

يتَّخذونه إلّا مَهزوءًا به[1]، والتَّعبير بالمصدَرِ أشدُّ مبالغَةً مِن الوَصْفِ باسْمِ المَفْعولِ، والمَعْنى أنَّهم كانوا كَثيري الاسْتِهْزاءِ بك[2].

سِرُّ التَّعبير بالاستهزاء دون السُّخريَّة:

جاء التَّعبير القرآنيُّ في وصف موقف الذين كفروا من الرَّسول ﷺ بالاستهزاء في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ دون أن يقولَ: (إلّا سخريَّة)، مع قُرْبِهما في المعنى لغةً، حيثُ إنَّهما يدلّان على الاحتقارِ مع أنَّ النّاظر في استعمال القرآن الكريم لَهُما يجِدُ فرقًا في الدّلالة؛ فمادَّة السُّخريَّة في أغلب صُوَرِها تتميَّز بالشِّدَّة ووجود سببٍ يدعو لذلك، ومِنَ الأمثلةِ على هذا موقفُ قوم نوح مع نوحٍ عليه السلام عند صُنعه السَّفينةَ، وصَوَّر القرآن ذلك بقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود:38]، وكان السَّبب في السُّخريَّة هو صناعة السَّفينة.

دِلالَةُ الحَذْفِ في الآيَةِ:

الإيجاز في اللَّفْظِ ثراءٌ للمعنى

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ قولٌ محذوفٌ، والتَّقدير: (ما يتَّخذونك إلّا مهزوءًا به؛ يقولونَ: أهذا الذي يَذْكُر آلهتَكم)[3]، وقرينةُ حذفِ القولِ ما تقَرَّر مِن أنَّ الاستهزاءَ يكون غالبًا بالقَوْلِ[4].

وفُصلَت جملةُ القولِ عمّا قَبلها؛ لِوُرودها استئنافًا بيانيًّا؛ إذْ إنَّ قولَهُ سُبحانه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يَبْعَثُ في نفسِ المُتلقّي سؤالًا وهُو: ما وجهُ استهزائِهم؟ أو ماذا كانوا يقولونَ في اسْتِهْزائهم؟ فجاءَ الجوابُ: يقولونَ ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 190.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 66، والشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 147.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 82، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 190.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 66.

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في ﴿أَهَٰذَا﴾:

تقليل المُشْركينَ من رُتْبَته ﷺ

دلَّ الاستفهام في قولِ الله تَعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ على محاولَةِ المُشْركينَ التَّقليلَ والتَّحقير من شأنه ﷺ، وذلك مِن خلال هذا الاستفهامِ الصّادر من الرُّؤساء والقادة لأتباعهم أو مِن بعض الكفّار لبعض، يقولونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ عَلى وجْه الاسْتِصغارِ للنَّبيِّ ﷺ، كما دلَّ عَلى ذلكَ قولُ الله سبحانه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

ويجوزُ أن يُرادَ بِالاسْتِفهامِ التَّعجُّب؛ وهو آيلٌ إلى مَعْنى الإنكارِ والتَّحقير؛ لأنَّهم يتَعجَّبون من صدورِ هذا الذِّكْرِ منهُ ﷺ لآلهتهم؛ لاعْتِقادِهم فيه ﷺ منزلةً دون المنزلَةِ الحقَّةِ التي لَهُ، ففي هذا جَمعٌ بينَ التَّعجُّب والتَّحقير[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ (هَذا):

تَـنْـويـعُ أهْـلِ الـشِّـرْكِ مِـنْ طَرائِقِ الاسْتِهْزاءِ

اسمُ الإشارةِ (هذا) مِن قولِ الله ﷻ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ مستعملٌ في التَّحقير، وهذه الدّلالةُ يُقَوّيها دلالةُ الاستفهامِ عَلى المَعنى نفسِه، والمعنى أنَّهم يستَقِلّونَه، ويستقِلّون أن يقولَ ذلكَ عَن آلِهَتِهم[2].

ومِن أسرار التَّعبير بالإشارة: الإيماءُ إلى محاولة قادةِ الشِّرك في مكَّة الإمعانَ في التَّقليل مِن شخصِ النَّبيِّ ﷺ في نظر أتباعه ونظر مَن يتطلَّعون إلى الإيمان بهِ، ويُؤكِّد هذا المعنى استخدامُ اسمِ الإشارة (هذا) الموضوعِ للقريب دون اسم الإشارة (ذلك) الموضوعِ للبعيد، وجوَّز الطِّيبيُّ أن يكون اسمُ الإشارةِ (هذا) مُسْتَعْملًا في التَّعظيم؛ ليستقيمَ مَعْنى الاستهزاءِ في أسلوبِ الاستفهامِ ﴿أَهَٰذَا

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 419، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 66، والشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 148.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9539.

﴿ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، والمَعْنى: هذا النَّبيُّ المُعظَّمُ يَذْكُرُ آلِهَتَكُم ويَعيبُها[1]، يقولون ذلك على وجه التَّعريض به.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ دون (يسبُّ آلهتكم):

حِـــرْصُ أهـلِ الـبـاطـل على تعظيم آلهتهم المزعومَةِ

عبّر القرآنُ الكريم عن مقولةِ قادةِ الكفر لأتباعهم في شأنه ﷺ وموقفه مِنَ الأصنام التي تعبدها قريشٌ بقوله: ﴿يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ دون (يسبُّ آلهتكم)؛ ولم يُصَرِّحوا بسَبِّ الآلهة تعظيمًا لها؛ لاعتقادِهم فيها أنَّها تنفع وتضرُّ؛ فلا ينبغي لأحَدٍ أن يَعْتَديَ عليها أو يعيبَها، بل إنَّ تعظيمَها وتقديسَها أمرٌ مطلوب في زعمهم الباطلِ.

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ فِعْلِ الذِّكْرِ:

الـذِّكْـرُ يَـكـونُ بِالخَيْرِ والشَّرِّ

حُذف متعلّق الذِّكْر لدلالة السّياق عليه؛ فالمقامُ مقام ذِكْرِ العَدُوِّ، ولا يَصْدُر مِنَ العدُوِّ إلّا السّوء، وهذا واضحٌ في قولِ الله ﷻ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾؛ فإنَّه يُراد به الذِّكْرُ بالسّوء، والقرينَةُ عَلى ذلكَ المقامُ؛ وذلك لأنَّهم يعلَمون ما يَذْكُر به آلهتَهم مِمّا يَسوؤُهم؛ إذِ الذِّكر قد يكونُ بالخير وقد يكونُ بالشّرِّ، فإنْ صُرِّح بمتعلّقِه تعيَّن أحدُهما بحسَبِ ذلك المُتعلّق، وإن لم يُصرَّح به - كما في هذا الموضعِ - يُلجأ إلى القرينَةِ، وهي هنا سياقُ الآية، ومن المعلوم أنَّ الرَّسول ﷺ لا يذكرها إلّا بسوء؛ لذا فالذِّكْرُ في قوله: ﴿يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ لا يكون إلا بالسّوء، كالذي في قولِ الله تَعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ﴾ [الأنبياء:60][2].

دلالة التَّعبير بالجُملة الحاليَّة:

نـعـي الـقـرآن للكفّار إنكارهم ذِكْـــرَ آلهتهم بسوء

دلَّ التَّعبير بالجملة الحاليةِ ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ على نَعْيِ القرآن للكفّار إنكارهم على الرَّسول ﷺ ذِكْرَ آلهتهم بسوء، مع أنَّهم يَكْفُرون بذكر الرَّحمن؛ فمَن هذه حالُه لا ينبغي أن يُنْكر على

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 348.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 66.

من يَعيب آلهتهم ويجترئ على مقامها في حالٍ هم فيها قائمون على جُرم غليظ؛ إذ كفروا بالرَّحمن الذي وسعهم برحمته؛ فلم يُعَجِّل لهم العذاب، وأفاض عليهم من فضله وإحسانه، فما لهم يَغارون على آلهتهم الصّمّاء الخرساء، ولا يغارون على مقام الرَّحمن[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُملَةِ الاسْميَّةِ:

اسْـتِـمـرارُ المُسْتَهْزئينَ عَلى الكُفْرِ والجُحودِ

عبّر القرآنُ الكريمُ عنِ الحالِ بالجملة الاسميَّة في قول الله سبحانَه: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ للإيماء إلى استمرارِهم على الكفرِ والجحودِ بربِّهم ﷻ؛ لأنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ تدلُّ على الثُّبوت والاستمرارِ بالقرائنِ، كما في هذه الآيةِ؛ إذْ مقامُ الإنكارِ عليهم قرينَةٌ عَلى دوامِ هَذا الكُفر مِنْهُم.

نُكْتَةُ تَكْرارِ الضَّميرِ (هُم):

تَعْظيمُ ما أتى بِهِ الكُفّارُ مِنَ القَبائِحِ

كُرِّر الضَّمير (هُم) في قول الله ﷻ: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ لإرادةِ التَّأكيدِ؛ تحقيقًا لدَوامِ كُفْرِهم معَ ظُهورِ الأدلَّةِ الموجبةِ إقلاعَهم عنْهُ، وتعظيمًا لِما أتوا به مِنَ القباحَةِ؛ وأنَّهم كافرونَ بالرَّحمنِ بظواهِرِهم وبَواطنِهم[2].

ويَجوز أن يكونَ المراد بالضَّمير ﴿وَهُم﴾ الأوّل: القوم الذين كانوا يَفْعلون ذلكَ الفعل، والثّاني: إبانة لاختصاصِهم به، مع ما في إعادته من التأكيد والتعظيم لفِعْلِهم[3].

سِرُّ اخْتيارِ اسْمِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾:

رَحْمَةُ الله تَعالى تُقابَلُ بِالإيمانِ لا بِالكُفْرانِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبير باسْمِ الرَّحمن في قولِ الله تَعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مرادًا به الله سُبحانَه، والمعنى: إذا ذُكِرَ اللّهُ تعالى كانوا به كافرينَ، ولكن عُبِّر باسمِ الله تعالى

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 15/ 218، والخطيب، التفسير القرآني: 6/ 898.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 144، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 420، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 67.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 443.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ لأنَّه أبلغُ في بيانِ ضلالِهم وانحرافِهم؛ إذْ هُم كافرونَ بالذي يَرْحَمُهم، وكان خليقًا بهم أن يُقابِلوا عظيمَ رحمتِه سُبحانه بالإيمانِ لا بالكُفران[1].

دِلالَةُ إضافَةِ ﴿بِذِكۡرِ﴾ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

جُحودُ الكَفَرَةِ بِتَوْحيدِ اللهِ تَعالى

إضافةُ ﴿بِذِكۡرِ﴾ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ مِنْ إضافة المَصْدَر إلى مَفْعولِه، والمَعْنى: وهُم إذا ذُكِرَ الرَّحمن بتَوْحيدِه هُم كافِرون[2].

ويجوزُ أن يكونَ مِن إضافَةِ المَصْدَرِ إلى فاعلِه، أي: وهُم بِتَذْكير الرَّحمن لَهُم جاحِدونَ[3].

ولا تَنافيَ بينَ المَعْنَيين؛ إذْ هُم كافِرون بذلكَ كُلِّه.

ومما يذكر في سر إضافةِ الذِّكْرِ إلى اسمِ الرَّحمن أنه جاء جريًا على ما كانوا عليه مِن إبائِهم أن يكونَ الرَّحمنُ اسمَ اللهِ تعالى، كما قال اللهُ ﷻ عَنْهُم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورَۢا ۝٦٠﴾[4] [الفرقان:60].

دِلالَةُ التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ:

تَأْكيدُ مَعْنى التَّخْصيصِ

في قولِ اللهِ سُبحانه: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ، وأصلُ النَّظم: (وهُم كافرونَ بذِكْرِ الرَّحمن)، وقُدِّمَ لإرادَةِ التَّخصيص، أي: هُم بذِكْرِ الرَّحمن وحدَهُ كافرون، فهُم جاحدونَ بألوهيَّةِ اللهِ تعالى[5]، وهو قصر إضافيٌّ؛ لأنَّهم جاحدونَ بالبَعْثِ أيضًا.

دِلالَةُ التَّعبير بضميرِ الفَصْلِ ﴿هُمۡ﴾:

بَيانُ سُخْفِ عُقولِ الكافرينَ

في ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 82.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 194.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4863.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 66.
(5) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4863.

﴿كَٰفِرُونَ﴾ تأكيدٌ لمعنى التَّخصيصِ المستفادِ مِن تقديمِ ما حقُّه التَّأخير.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ عَنْ وصْفِ الكُفْرِ بالاسْمِ:

دَوامُهُم عَلى الكُفرِ واسْتِمرارُهُم في الجُحودِ

في التَّعبيرِ عَن كُفْرِهم بالاسْمِ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ إشْعارٌ بدَوامِ كُفْرِهم واسْتِمرارِ جُحودِهم؛ لأنَّ الاسمَ دالٌّ على الثُّبوت، وعلى الاسْتِمرارِ بالقَرائن، كَما في هذِه الآيةِ.

مُناسَبَةُ كَلِمَةِ الفاصِلَةِ لِمَضْمونِ الآيَةِ:

رَدُّ عَجُزِ الآيةِ على صَدْرِها من فنّ التصدير

جاءَت فاصلةُ هذه الآية ﴿كَٰفِرُونَ﴾ ردًّا لعَجُز الآيةِ عَلى صَدْرِها؛ إذْ قَد ورد في صَدْرِها مادَّةُ الكفر في قوله سُبحانه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وفي إعادةِ ذِكْرِ وصفِ الكُفر في فاصلةِ الآية تأكيدٌ على دوامِ كُفرهم واستمرارهم عليه واختصاصهم بِه، وذلك ظاهِرٌ مِن تقديمِ الضَّمير ﴿هُمْ﴾، وصياغة اسمٍ من مادَّة الكفر؛ وهُو دالٌّ على الدَّوام بالقرائن[1].

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في انْتِقاءِ الأَلْفاظِ المُناسِبَةِ لِسياقاتِها

تشابَه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مع موضع سورةِ الفُرقان: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان:41]، فمَوْضِعُ سورة الأنبياءِ وردَ فيها الفاعلُ مُظْهرًا، وفي سورة الفرقان وردَ الفاعلُ مُضْمرًا.

ووجهُ المُغايرَةِ بَيْنَهُما: أنَّ الكُفّار الذين عاصَروا النَّبيّ ﷺ لَم يتقدَّم قبلَ آيةِ سورَة الأنبياءِ أو فيما يَليها مِن آياتِ السّورَةِ خِطابٌ

(1) رشا بنت عبد الله الزيد، الفواصل القرآنية في سورة الأنبياء وعلاقتها بمقصودها: دراسة بلاغية، ص: 242 - 243.

يَخُصُّهم، وإنَّما تَقدَّمها قولُ الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء:30]، وهذا يَتناوَلُ كُلَّ كافِرٍ مِنَ العرَبِ أو مِنْ غَيْرِهم، سواءٌ أكانوا مُعاصِرين للنَّبيِّ ﷺ أو غيرَ معاصرينَ، ثُمَّ لَم يَرِدْ بعدَ هذه الآيةِ ما يُنافي عُمومَها، ولِذا تَعَيَّن إظهارُ الفاعِلِ في قولِه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ إذْ لَو أُضْمِر فوَرَد النَّظم القرآنيُّ: (وإذا رأوك)؛ لَما صَلَح رجوعُه إلّا على المَذْكورين قبلُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وليسَ ذلكَ خاصًّا بالمُعاصرين، فلم يَكُن مُناسِبًا.

بخلافِ آية الفُرقان؛ فإنَّه تقدَّمها قولُ الله سُبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان:32]، والمُنَزَّل عليه القُرآن معلومٌ وهُو النَّبيُّ ﷺ، فالقائلونَ مُعاصرون، فلمّا سبقَ ذِكْرُهم بِخُصوصهم، واحتيجَ بعدُ إلى الإخبارِ عَنْهُم؛ جيء بالضَّمير الدّالِّ عليهم؛ إذِ الإضْمارُ أوجَزُ مِنَ الإظْهارِ[1].

ومِمّا يَلْزَمُ ذكرُه في متشابه الآيتين: اختلاف التَّعقيب في كُلٍّ منهما؛ ففي سورة الأنبياء خُتمت الآية بقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وذلك أنَّهُ لمّا تقدَّم في سورة الأنبياء الحديثُ عن اتِّخاذ كفّار مكَّة معبودات لا تُغْني عَنْهُم مِنَ الله شيئًا، وبيَّن القرآنُ فسادَ مرتكبهم هذا في آياتٍ عِدَّةٍ، منها قولهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنبياء:21] وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء:22]، وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الأنبياء:24]، لكلٍّ ذلك ناسب موضع الأنبياء التَّعقيب المذكور فيها.

أمّا موضعُ سورة الفرقان؛ فقَد تقدَّمه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:7]؛ فأنكروا كون الرَّسول من البشر، فجرى مع ذلك وناسبه قولُهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: 41] تعجُّبًا واستبعادًا أن يكون الرُّسل من البشر، وقد ردَّ القرآن عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ﴾ [الفرقان:20]؛ فظهر التَّناسب في كل منهما[2].

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 346.
(2) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 347.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاسْتِهْزاءُ والسُّخْريَةُ:

الاسْتِهْزاءُ أعَمُّ مِنَ السُّخْريَةِ

الفَرْقُ بينَهُما مِن وجهين؛ لفظيٌّ ومعنويٌّ[1].

فأمّا اللَّفظيُّ؛ فهو أنَّ الغالبَ في فِعْلِ الاِسْتِهْزاءِ أنْ يتعدَّى بحرفِ الجرِّ (مِنْ)، والغالبَ في فعل السُّخريَة أن يتعدَّى بالباءِ، وتعديةُ كلِّ واحدٍ بالحرف المذكورِ مُطَّردٌ في القرآنِ الكريم لا يتخَلَّفُ، ولكنْ ورَدَ مِنْ غير الغالبِ في كلامِ العربِ.

وأمّا المعنويُّ؛ فهو أنَّ الاستهزاءَ لا يلزمُ مِنْهُ سبقُ فعلٍ مِنَ المُستهزَأِ به يقتضي ذلك، أمّا السُّخريَةُ فإنَّها لا تكون إلّا على فعلٍ صَدَرَ مِنَ المَسْخورِ مِنْهُ.

والقولُ بأنَّ الاستهزاءَ لا يَلْزَمُ مِنْهُ سَبْقُ فِعْلٍ مِنَ المُسْتَهزَأ به يَقْتَضي ذَلِكَ؛ لا يَنْفي وجودَ فعلٍ أصلًا، وإنَّما ينفي اللُّزومَ، فقد يوجَدُ وقد لا يوجَدُ؛ فهو بِهَذا أعَمُّ مِنَ السُّخريَةِ.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص254، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/ 147.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»